

زوجہ

المرحومہ

کریمہ

فصلت بیگم
ادمون علیہا

زوجة المرحوم

قصة

بقلم

ادمون صبري

مطبعة الوفاء - تلفون ٨٨٨٢٠

١٩٦٢

كانت معرفتي بالسيد محمد راغب لا تتجاوز معرفة الوجه بالدرجة الاولى وتبادل بعض تحيات المجاملة المقتضبة عندما التقية مع صديقه الحميم السيد جمال المفتش الصحي . كان هذا كل شيء ، فقد اضطرت غير مرة أن أزور صديقه وصديقي المفتش الصحي التمسه أن يزرق ولدي بأبرة فيفعل ذلك بهمة مشهودة وبمهارة رجل المهنة الممارس الخبير الذي سلخ نصف عمره في زرق الناس بالابر . لا أذكر مرة أنني التقيت جمالاً في بيته أوفي الشارع أو المقهى دون أن يكون في صحبة السيد محمد راغب ، وقد علمت عن طريق عرضي ان السيد محمد راغب يعمل محامياً ، ومع ذلك فلم يتضخم في عيني ولم أشعر تجاهه باي اعتبار إضافي لانه لم يبد في يوم من الأيام على شيء من الأهمية . كان عادي اللباس ان لم يكن دون مستوى موظفي الدولة الصغار ، اذ لم يكلف نفسه أن يظهر أنيقاً حليقاً حسن البزة . كان البار يلطخ حذاه والتمعج بسود بدلته والاضطراب يعلو ياقته وربطته على السواء ، وهما وسختان في غالب الاحيان ، وان كان يحمل فوق رأسه لمة محترمة كيفية من الشعر الا انها مشوشة على النحو الذي يبعد الظن ان يكون صاحبها فناً ورجل فكر وعلم ، يحتقب محفظة رثة سميكة من الضرب الذي يستعمله الدالون لحفظ الخرائط ومعاملات الطابو . وقد علمت فيما علمت انه يتسب الى أسرة معروفة ثرية كريمة وله بين انسبائه أطباء ومحامون لامعون ورجال ادارة ومناصب ، ولم يحفل كل ذلك باهتمامي .

كان صديقاً حميماً لجمال أو لافل بكلمة أوفى وأنسب ، انه صديقه الاوحد الوحيد المستأثر بكل أوقات فراغه . أجدهما غالباً يتسامران في المقهى وقد أنغمرا في حديث ودي بلغ بهما غاية الانسجام ولا أذكر انني زرت جمالاً في بيته دون أن يكون محمد راغب أحد جلسه أو جلسه الوحيد فأدخل أحبيه وأخرج أودعه ولا أذكر مرة أنه أنصرف قبلي وان جلست بضع ساعات . أما شعوري تجاه

جمال المفتش الصحي فكان شعوراً طيباً رقيقاً ، فقد أختبرت الرجل عن كذب وفحصت خلقه وسجاياه فالفيتته كريماً شهماً أنسانياً من أولئك الناس الذين يعيشون ويموتون دون أن يزعجوا كائناً من الكائنات ، ومع انه كان موظفاً صغيراً محدود الموارد الا انه عفيفاً نزيهاً لا يهمله حتى ان زرق مئات الناس بالابر من غير أجره ، وكانت النساء وحتى الزوجات الشابات يأمننه ويرتحن اليه ويلتمسنه من أجل علاجهن ، كان الرجل يحظي باحترامي وأكباري حقاً ، فهو لا يتكلم الا بما يلزم ولا يدعي علماً أو معرفة ولا يتبجح أو يغالط فيما لا يعرفه ، يلود بالصمت أو بهز الرأس كمن يقول - عسى ان يكون ما تقوله صحيحاً - وان كان مبالغة وشططاً . كان مولماً بالتدخين يستهلك علب السيكائر واحدة بعد أخرى دون ان يغفل جلاسه ومن حوله ، حائثاً أياهم بالحاح ان يدخنوا ، ومع ذلك فهو لا يخمر مطلقاً وحتى في مناسبات الاعياد والاعراس والحفلات الصغيرة يتناول كأساً أو كأسين صغيرين محتفظاً بكامل وعيه بغني وبشترك مع الجوقة ويرقص مع الراقصين ويفرح ويتبجح دون أن تكون لتصرفاته أثر من آثار السوء على أحد .

في الطريق عندما التقيه مع صديقه محمد راغب يبادرني بتحية مشهودة حافلة يعقبها سؤال رقيق عن الصحة وأتسامه رضية ترتفع على أثرها يده حتى تلمس شعرات رأسه الموهوطة بالشيب ، أما تحية محمد راغب فهو جزة باردة تخرج من الشفاه وكأنه يقول - ليس من المستحسن أن أبقى صامتاً - .

زرت جمالاً ذات مرة في دائرته حيث كنت مريضاً أشكو التهاباً في في الخنجره وقد وصف لي الطبيب أبراً معينة أبتعتها من الصيدلي وحملتها معي اليه كي يزرقني بواحدة منها . وفي الدائرة لقبني مستقبلاً محنفاً وأجلسني الى جواره وأخرج علبه سيكائره ودفع الى اناملي واحدة ودعا لي الشاي وشرع يتحدث عن دائرته وشؤون عمله وعمل الدوائر الاخرى المتصلة بها ففهمت منه انهم يقومون

بتزويد شهادات وفاة لاولئك السوء الحظ الذين يموتون من غير معالجة طيب
وليس ثمة جريمة في وفاتهم قلت هازئاً - ليس ثمة جريمة وهم يتساقطون موتى
من غير علاج ولا طيب - .

لم يكن باستطاعة جمال ان يفسر معنى أن يموت الانسان من غير علاج ولا
طيب ومعنى ان يكون الموتى من هذه الشاكلة يحيون على حافة المجاعة ولا يملأون
توايتهم سوى في الطول . لم يكن راغباً في التحدث في الامور العامة كان يجد فيها
منزلاً الى المكروه ومع ذلك فهو يتألم ويسخط ويستكر عن طريق شفثيه
المضمومتين ورأسه المتذبذب وعينه المعذبتين ، وقلما يفصح عن شي ، كان يردد
عبارة في مجلسه الخاص كلما انتهى جليس من سرد حكايته البائسة - ليست هي
المسألة الوحيدة ، ثمة عشرات سواها -

قال - ان عملنا يتم بتخصيص بعض المفتشين الصحيين للكشف عن الميتين
وتزويد ذويهم بشهادات الوفاة قبل دفنهم على ان تكون الاسباب طبيعية محضة
سألته - وغير الطبيعية ؟

اجاب في هدوء استاذ عالم . ثمة حالات اخرى يموت فيها الانسان بتدخل
من القدر او من فعل اخ له فينقل الميت الى الطب العدلى حيث ينظم عن حالته
تقرير طويل مفصل . عن عمره وطوله وعرضه ولون شعره وعينه وشكل ارديته
وحال جسده عضواً عضواً الظاهرية والباطنية وحتى الامعاء والرئة والقلب ثم
يعثون به الى المحكمة التى سوف تنظر فى القضية .

ثم عقب باسمأ - طبعا التقرير يبعث لا الميت ولا بد انك طالعت مثل هذه
في الجرائد اليومية ، كل يوم عدد كبير منها ، هكذا يقولون نقلت الجثة الى
معهد الطب العدلى للتشريح وبيان سبب الوفاة .

كان حديثه طلياً جذاباً بسيطاً كسباسة نفسه ، وعند خروجه الى باب

دائرتة لقيت سيارة صغيرة تحمل على سقفها تابوتاً خشبياً رخيصاً مشدوداً بالحبال تقعد بداخلها أمرأتان ورجل ملثم القم باطراف الكوفية التي تلف رأسه ، وقفت برهة انظر الى المفتش الصحي المربوع القامة ذي الرأس المصفح والنظرات الكاسرة وهو يأمر رجلين يقفان في حذاء السيارة أن ينزلا التابوت الى الارض فامثلاً أمره في غير أرتياح وتقدما الى فك الحبال الغليظة ولما تم لهما ذلك انبثق من الشارع مستطرقان او ثلاثة تعاونا جميعاً على حمل التابوت وانزاله الى الارض فرحت اراقب حركات المفتش الصحي وامائر وجهه على بعد خطوات وهو يتأمل في الشيء غير الهام المطروح في التابوت وكأنما يتأمل في زوج حذاء بال لم يعد يصلح لشيء .

بعد ايام مرض ولدي الصغير فراجعت الطبيب فوصف له الابر فالتمست أيضاً معنة جمال التي لا مفر منها في مثل هذا الحال ، اخذته امه في المساء ففرقه بأول ابرة وعادت به ، سألتها كيف هو حال سيد جمال قالت باسمه - في احسن حال وقد بلغني ان احمل اليك تحياته وتحيات زوجته . ثم سألت من كان هناك اجابت في بدهاة - من تظن ان يكون سوى صديقه محمد راغب - وكنت واثقا من هذا الجواب فتساءلت في نفسي عن سر هذه الرابطة المتينة بين جمال المفتش الصحي ومحمد راغب المحامي . اعرف ان جمالا ليس من رجال القانون بالمرة وبعيد عن المحاكم وليست لديه اية ثقافة كاملة في موضوع من الموضوعات ولم يقدر لي في يوم ان اسمع نوع الحديث الذي يدور بين هذين الرجلين ، اجد محمد راغب في الغالب يكاد يكون صامتا ينهمك طيلة الوقت في تدخين السكاثر وتحريك ساقيه والتعود بالله لغير ما يقتضي المقام والتظاهر بالتفكير المهموم المتعب ويتفرغ جمال للتحدث دون ان يحاول ادنى محاولة أشراك محمد راغب في الحديث كما لم اجد مريم وهي زوجة جمال - ذات شعر كثيف محنى تحنينا شديدا حتى ليضرب

لونه الى لون الحديد العتيق الصدىء وينطلق من فمها صوتاً خشناً مبوحاً كصوت الرجال المسرفين في التدخين - تشغل طرفاً ثالثاً في هذه الصداقة وكنت لاحظ انها تعامله معاملة رقيقة وتستقبله في غياب زوجها حيث تجلس قبلته على كرسي يبعد عن مكان جلوسه مسافة غير قريبة ويبدو انها على معرفة بزوجه واولاده واحداً واحداً ويدور الحديث بينهما عن شؤون العائلة لا غير

وفجأة وعلى غير توقع ولا أنتظار وبمثل الصاعقة التي تنقض على الناس وهم في أمن شامل بلغتني زوجتي ان جمالا قدمات فاضعقت في مكاني مذهولا وهتفت في جرع - كيف يمكن ان يموت انتي رايتك قبل ايام قليلة وجالسته وكلمته وانصرفت عنه وهو في صحة لا تشوبها شائبة - فأجابت زوجتي مؤكدة هي ولا تقل جزعا واسى عني - بل انا التي حملت ابنتا اليه في الامس الاول وزرقه بالابرة وكان بشوشا متفائلا دائم الابتسام كأنه يبعد عن الموت الاف الاميال - تهتدت وقلت حقا ان الانسان اشبه بالاعمى لن يدري في اى الحفر تزلق قدمه ويتحطم . المنى الخبر ايما ايلام وكانما اخى الوحيد هو الذي مات . حزنت كثيرا لوفاة جمال وامتلأت بخيلتي لبضعة ايام بصورته المتسمة الوديعه وفمه الدقيق المنفرج عن اسنان طويلة لانحسار اللثة وتكاد تكون صفراء لسبب لا اعلمه وشعره المخروط بالشيب توخيظا شديدا وقامته الحسنه بل وصوته وكلماته ومجاملاته ذات الرنين العتيق الذي شاع في القرن المنصرم مثل راعي السلام سالم عندما يحمله احدهم تحية لصديق ، او كلمة هنيئا عندما يفرغ جلسه من شرب قدح ماء ، وبالافراح عندما يتم شرب فنتجان القهوة في بيت مضيفيه وله كلمات خاصة اخرى يرددها ايام الاعياد وفي مناسبات العرس والفرح والتعزية

خفت من ساعتى للذهاب الى بيته واستطلاع جلية الخبر اذ كانت حواسي جميعا ترفض تصديق وفاة جمال وكنت انا ايضا بعقلي الواعي ارجو ان يكون

الامر اشتباه او كذبة ، وحين بلغت الزقاق الذي يوصل الى بيته صرت اطلع
بامعان الى اصحاب الدكاكين الذين يعرفون جمالا معرفة اكيدة ويرونه في اليوم
عدة مرات رائحا غاديا بين دائرته والبيت ولكنني لم الحظ شيئا غير عادي، فالزقاق
نفسه بضجيجه واناسه واشيائه التي اعتدت رؤيتها في كل زيارة ومع ذلك فقد
مضيت بخطو غير متريث ، وعند الباب بلغ اذني العويل النسائي الموجه الذي
يألفه المرء في بيت الميت . كان عويل زوجته مريم واضحا ناشزا عن سواء من
الاصوات بسبب خشونته وبعته وعمقه وكأنه يصدر من انبوب عريض كثير
الثقوب فوخز قلبي وادماه . اتخذت سبيلي بين جمع صغير من المعزين وجلست
الى جوار بعضهم وقد ران على الوجوه حزن واسف ملحوظان . واصلت زوجته
العويل بنبرات اعلى حال ان لمحتني ادخل ، وتلك عادة متبعة عند دخول اصدقاء
الميت ، وراحت الارملة تعدد مناقب زوجها وترثيه سمعتها تتهدج باسم الرجل
الكريم الذي لم يعكر صفو احد ، صدقت دعواها وهزرت رأسي وغلبنى الحزن
فانهمرت من عيني دمعتان كبيرتان شوشت الرؤبة امامي فأسرعت بمحوهما بالمنديل .
مرت بضع دقائق سوداء قاتمة لم انظر حوالي ولم اتبين وجوه الناس الجالسين
الا ان محمد راغب برز فجأة امام عيني . كان قد جلس على مقربة دانية مني في
حالة وجوم وذهول شديدين ، قد نزلت عليه الكارثة نزول المطرقة ، يسحب من
سيكارته انفاسا ثقيلة وينفث دخانها عند قدميه فزادني مشهده حزنا على حزن .
وكان هو الشخص الوحيد الذي يذكرني اوضح ذكرى بكل ما امتاز به جمال
من رفعة الخلق والكياسة واللطف . رايت في محمد راغب نصفه الذي قد مات ورفيقه
الذي لا يغيب عنه يوما واحدا . مضت دقائق اخرى وكنت ارجو ان تقع على
عينا محمد راغب فاستطيع مخاطبته وتعزيبته والتزود بأخبار تفصيلية اخرى عن وفاة
جمال ، غير انه لم يلتفت نحوي مطلقا فاهملت امره ورحت انصت الى عويل

النسوة ومراثي احداهن وهي مكلفة باستدرار الدموع عن طريق الندب والتفجع
وفجأة اتصت امامى محمد راغب ويده علبه سكاتر قائلا :

- تفضل

رفعت اليه عيني وشكرته فتهند وقال - دخن - فامثلت امره وتناولت واحدة
وتهدت جواباً على تنهده ثم بحث عن مكان الى جوارى فوق الى ازاحة
احد الجالسين وجلس مكانه ، شعرت لاول مرة انني احمل عاطفة ما لمحمد
راغب وانه قد غدا صديقي اللحظة كما لم يغد من قبل ، كما شعرت بالثامخاله فهو
اشد مني التصاقا بجمال وادنى مودة قلت - نكبة لا تنسى . . . حينما بلغني الخبر
انهزرت هزا ولم ابطأ فى القدوم واستجلاء حقيقة الحادث ثم قلت بنبرة حزينة
- اننى رايتة اخر مرة قبل نحو اربعة ايام فى الصباح وهو فى طريقه الى الدائرة
فحييته وصافحته ولم ادر علام نظرت مليا الى وجهه النحيل وتاملت فى اسنانه ، لربما
كان هاجسا يهيجس فى صدرى اننى اراه لآخر مرة - هز محمد راغب رأسه فى أسى ،
ثم واصلت حديثي وسألته كيف بلغه الخبر

قال - كنت فى طريقى الى المحكمة لحضور بعض المرافعات وقد حملت
معى حقيبتى ، وعند مفرق العداوية لقيني أحد أقرباء جمال وانا أعرفه معرفة يسيرة
فتقدم نحوي وبادرني بحديث استهلالي عن جمال . سألتى متى رأيتة آخر مرة
قلت ليلة أمس ، قال الم تسمع ما حدث . أجبت لا . قال اذن اذهب اللحظة الى
بيته فانه ينتظرك هناك لامر هام . وجدت ان الحديث كله غريب ومريب ، سألته
بحدة - قل لي ما الخبر ؟ أجاب متلعثما انه مريض جدا ويريد مقابلتك صحت
به منتهراً اياه - انى ذاهب الى المحكمة ولدى اعمال اخرى وانت تناور وتداور .
افهمنى ما الذى حدث - فاضطر الى الافصاح فى اخر الامر ، وقال ان جمالا قد
مات صباح اليوم بالسكتة القلبية وفى الدائرة - على اية حال استشعرت للدوار

وانسدلت امام عيني ستارة صفيقة رأيت الدنيا من خلالها كألحة بائسة مغبرة كما لو ان مدينة بغداد تهدمت وابتلعها بركان هائج . مضيت الى المحكمة متعجلا ، فانيت بعض اعمالى واجلت البعض الاخر وانا لا أكاد أصدق اذ وجدت في تصديق النبا تحطيم اعصابى كلية ، فاستاجرت سيارة وجئت الى هنا ولا استطيع ان اصف لك حالتى . كان جمال قد مات حقا وقد رأيت التابوت بعيني كما رايت الشيء العزيز جدا يحمل من الفراش ويوضع في ذلك التابوت . في الحق انى لم استطع احتمال قسوة المشهد ، فتقهقرت وراء ظهور النساء خشية ان انهار واقع على الارض . وانك لا تعلم انى اعانى ضعفا في الاعصاب واملك قلبا كسيراً يخفق بشدة عند الانفعال فيجعلنى اترنح واوشك على الاختناق . ولذا لم احتمل رؤية المشهد المؤثر ولذا لم تقم عيناى على جمال وهو ميت ومع ذلك خرجت مع المشيعين فى سيارة ومضينا الى المقبرة - ثم غلبته عاطفة نبيلة فاجهش بالبكاء . فدمعت عيناى من جديد واطرقت الى الارض . تتمم محمد راغب - كان يفهمنى ويشجعنى فى اعمالى ويدفعنى الى المثابرة وقد نلت بفضل توجيهاته نجاحات كبيرة ، ولكن يا للأسف لقد فقدته .

علقت بذهنى عبارته الاخيرة ما الذى يقصده بانه يدفعنى الى المثابرة . ان محمد راغب محام ولا شيء آخر ، وان جمالا مفتش صحى ولا شيء آخر . وان شئت الموازنة بين ثقافة الرجلين لرجب ثقافة محمد راغب على ثقافة جمال باعتبارهم رجل قانون وخريج مدرسة عالية ، بينما جمال موظف صغير محدود اليراد . انتظرت ان يتواصل الحديث وأصل الى ايضاح شاف

كان المعزون يدخلون فرادى وجماعات يؤدون الصلاة ويحتسون قليلا من القهوة المرة ويتناولون سكارا واحدة ينهمكون فى مص دخانها ويرفع محمد راغب

يديه بالسلام محياً الداخلين حالما يستقر المجلس بهم ، كانوا يتبدلون بطبيعة الحال بينما نحن الاثنين أنتحينا جانبا قد غمرنا الحديث المهموس الخافت نوصل سيكارة بسيكارة كما يفعل الناس في مجالس العزاء يبلغ اذنيننا بين الحين والحين همهمات وسعال وترديد بعض الحكم التي تذكر الانسان بالفناء والتحدث عن بهرج الحياة الدنيا التي لاتساوى فقيراً تجاه الموت القهار . ولا ريب ان جمالا قد خلد في اذهان معظم الجالسين ذكرى محمودة مشكورة قال محمد راغب - لا قيمة للحياة بينا الانسان يسعى سعياً محموداً وبلا هواة في سبيل ارباحه ومكاسبه ، وفي الحقيقة كل انسان مهما صوّل قدره وقل جاهه فانه يكسب عيشه لا محالة . ولا تمضي عليه ليلة واحدة دون ان يجد لقمة يسدها رمقه ، وضرب لي مثلاً خطيراً . قال اني اشترت قبل فترة قصيرة من الزمن بيتاً كبيراً جديداً وحدث بعد انتقالنا اليه ان اكتشفنا جرداناً كثيرة تسرح وتمرح في غرفه ومطبخه وسردابه ومرافقه الاخرى . فألحت على زوجتي ان ابتاع مصيدة او سموما اقضي بها على الجرذان فرفضت ، قلت لها ان الجرذان مخلوقات مثلنا وهي تسعى الى قوتها كما يسعى الادميون فلا يصح ان نمنع عنها رزقها ونعرضها للجاعة أو الموت ، وعليه لم أبتع مصيدة ولا سموما ، وتركت الجرذان تجول بكامل حريتها في ارجاء البيت . ولم تستطع زوجتي معارضي ، بل وجدتني بعد حين قد اقتنعت بصواب رأيي وصارت تقدم للجرذان الطعام اللازم في أطباق خاصة واكتشفنا بعد حين أسراباً من النمل تتسلق الجدران للوصول الى صحون الطعام الدبقة ، فهمت زوجتي ان تسحق النمل كله فمنعتها منعاً باتاً ورجوتها ان تبعد صحون الطعام الدبقة عن الغرف التي تخشى عليها من هجوم النمل وقد نجحت الخطة وابتعد النمل سالماً دون ان نفتك بنملة واحدة .

لم اجادل محمد راغب في هذا التخريج الشاذ للبقاء على حياة حيوانات ضارة اجمع العالم كله ومنذ مالا يحصى من القرون على ضرورة ابادتها ومحاربتها انما تراحت

في رأسي علامات استفهام كبيرة عميقة . ترى أي مذهب يدين به هذا الرجل .
أقرته على مذهب اليه رجاة ان أصل الى اغوار نفسه قلت مؤكداً - من غير
ريب انها مخلوقات قد تكون عزيزة على من خلقها لايجوز ان نسفك دماءها مادام
بالامكان عزلها في مكان خاص ، ونطلق لها سبل العيش ولا احسب ان الارض
تضيق بها ولن تخلق لنا مجاعة .

هز محمد راغب راسه مؤيدا كلامي مع شيء من الابتهاج - قال ان جمالا كان
يذهب معي هذا المذهب ويؤيدني - الا انني لا اذكر قط ان جمالا ذكر شيئاً
عن شفقتة بالجرذان والنمل ويجعلها تسرح وتمرح في بيته ولا يمسه بسوء ، ولا
يمكن ان يصدر عنه مثل هذا الرأي وهو مفتش صحي ويعمل في حقل الطب
وحفظ صحة الناس من المرض .

ولا ادري كيف عرج بالحديث عن الذرة فاعلن في اقتناع - ان عالم الذرة الحقيقي
هو رجل عربي ولد في الاحساء قبل مائتي سنة واسمه احمد الاحسائي وليس سواه كما
يدعى الاوريون ولدى ابحت في الذرة وضعها هذا العالم الكبير ثبت قيمة
بحوثه وتجاربه والنتائج الباهرة التي توصل اليها في علم الذرة .

سألت - انت تبحت في العلوم؟

اجابني اجابة العارف الخبير - اجل ابحت منذ زمن بعيد قد يبلغ خمسة
وعشرين عاما .

فداخل ذهني ان الرجل يبحت في موضوع من موضوعات القانون وليس
هذا بكثير على محام سلخ في المهنة عشرين عاما

قلت - من غير ريب أنك تبحت في أمور حقوقية .

اجاب في انكار - كلا بل أنني ابحت في الميكانيك .

استغربت - كيف ، انك محام ، ما الذي يدعوك الى الاشتغال في الميكانيك

وليس ثمة تقارب بين الحرفتين ، وفي ايضاح مسهب على طريقة استطرد يقول- انني درست الميكانيك منذ زمن طويل ، واعرف كل شيء عن المكنائن والالات وطريقة تشغيلها والاعمال التي تؤديها مع تركيبها واصلاحها ومع مايتعلق بها من نظريات ودراسات . كما انني درست دراسة مستفيضة لعلم المثلثات ، وعلى هذا العلم بنيت اختراعي .

وهكذا انتهى المحامي ان يكون مخترعا لالة من الالات الميكانيكية فكتمت دهشتي بعد ان وجدت ان الدهشة لا اعتبار لها في فيض مفاجآت الكثرية قال متأسفاً - كان جمال على علم بتجاربي ، وقد اريته كل شيء وكشفت له اسراري ففهمها واقراها وشجعتني على المواصلة في اعمالي ، واستطرد يقول في تأثر- كانت له نظرات صائبة جدا ، فقد اخذته الى بيتي عدة مرات ومكثنا عدة ساعات نبحث في موضوع اختراعي ، وقد اريته بعض التصاميم لالة تعمل من غير وقود ، بل بقوة الاندفاع الذاتي ، واقتنع تمام الاقتناع بنجاح الفكرة ولكن من يصدق ، انني اخشى ان اتحدث لاحد من الغرباء لئلا يتهمني بالجنون وفعلا قد يقولون عني انه مجنون .

طمأنته وانا اصطنع المراوغة- لا تكثرت ، لا تتحدث في موضوعك الا الى عالم من العلماء . . . انك لن تجد تاييداً وتشجيعاً لا من طبقة العلماء امثالك ، أنهم يفهمون مزاي كل اختراع واهميته ومكانته بين العلوم التطبيقية .

قال متحيراً - انني سافعل ولكن أني لي بالعالم الذي استطيع ان ابوح له باسرار اختراعي . . . سيتهمني بالجنون باديء الامر والناس جميعا يذهبون مذهب العالم ولا يذهبون مذهبي لأنني لم أعرف بين الناس ميكانيكياً اشتغل بالاختراعات ، ولكن بعد اعلان اختراعي واثبات حقيقته استطيع ان اتهم ذلك العالم انه مجنون ويؤيدني الناس لانني اكون قد حققت منفعة كبرى للبشرية وخدمت علم الميكانيك

خدمة مشكورة وساهمت في تطوير العلوم الطبيعية ووفرت من جهود الانسان ما قيمته ملايين الدنانير في العالم الواحد . ووجدت في آخر الامر ان جلستي قد طالت اكثر مما ينبغي وانا الاثنان قد انزلنا عن مجموع المعزين انزالاً تاماً ، واصبنا موضع تساؤل ، فوجدت من الخير ان اتركه وانصرف فقطعت عليه الحديث بلباقة وانا ابتسم له ابتسامة تشجيع وخلفته في مكانه وهو يتميز شوقاً لمواصلة الحديث عن اختراعه المزعوم .

مضى نحو اسبوعين لم تقع عيناى على محمد راغب المحامي ، وحسبت ان علاقتي به قد انتهت ان كان ثمة علاقة ، فانا لست صديقه قبالا انما صديق صديقه او صديق صديقي كما ان صداقتي بالمرحوم جمال كانت محدودة الجوانب وليس لها جذور عميقة انما الذي حبه الي هو طبيته وصدقه ومحبه للناس وهي مزايا محموده لا يبخس قدرها احد ، اما ما خلا ذلك فلا اعرف عنه ايما شيء . وفي اليوم الذي لقيت به محمد راغب وتحادثنا كل ذلك الحديث الطويل كان بدافع الاسى للصديق الذي فقد صديقه ، وخرجت منه بنتيجة أن محمد راغب ليس في تمام عقله أو لعله عالم حقاً ولكنني لم أستطع سبر غور علمه . وقد أكون ذا علم قليل في القانون وأصول المحاكمات وتصنيف الدعاوي وأني قد حضرت بعض المحاكمات أيام تعطلى وبطالني لقضاء الوقت والتفرج على المتشاجرين والسراق وهم يستجوبون في قفص الاتهام ، كما انني درست المثلثات أيام صباي وكيف نستخرج ارتفاع مئذنة ونحن نقف بعيداً عنها بواسطة الزوايا والأبعاد ولكن الشيء الذي أجهله تماماً هو الميكانيك فلم أحس في يوم انني أرغب في الأمام به حتى أنني لا أعرف قيادة سيارة ، وأيام تقام المعارض الأجنبية والوطنية ويؤتى بالآت هائلة مذهلة تصنع الاعاجيب يعرضونها للملأ ، لم اتقدم اليها ولم تستهوني إنما أنظر لها عن بعد وأمضي في سبيل ولذا أمضيت حياتي كلها وأنا أجهل

الميكانيك حتى أبسط قواعده ، وعندما بلغنى محمد راغب انه يبحث في موضوع الميكانيك منذ ٢٥ عاماً وتوصل الى اختراع هام في تسيير آلة بقوة الاندفاع الذاتي من غير فحم ولا زيت ولا كهرباء ، وقد المح لي غير مرة أن جمالاً كان عليماً يبحثه وكان يفهمه ويشجعه ويعينه ، فلم أستطع ان أفسر هذا الزعم .

لقيت محمد راغب مرة أخرى مصادفة . كان يمر ياب يتي وكنت أنا في إحدى الغرف الامامية أنظر عبر نافذة الى المارة في الشارع . مر محمد راغب بخطو وثيد عليه امارات الحيرة والحزن ، قد شد الى عنقه ربطه سوداء زاهية كبيرة ينظر الى النوافذ والابواب نظرة مستطلعة كمن يبحث عن شخص أو مكان ، ورأيت مرة أخرى بعد عشر دقائق يعود القهقري تحت نافذة غرفتي تماماً وقد تطلع فعلاً الى النافذة وكان يمكن ان يراني لولا الشبكة السلكية الكثيفة التي تصدم البصر من الخارج . قلت لاخرج اليه وأسأله . كانت بقية من أشفاق تعتمل في صدري تجاهه ، فقد غدا بنظري أشبه بالأرمل او الارملة بعد وفاة صديقه . ولم يدر بخدي انه يبحث عني . خرجت اليه وناديتهُ متلطفاً عليه بالاستاذ تجيلاً لحرقة الحمامة المرموقة فاستدار نحوي وأبتدري في أرتياح - اتم هنا كدت أنسى بيتك - أجبته وأنا أفسح له المجال للدخول - كيف علمت اني أسكن هنا ؟ قال - أعرف جيداً لقد مررت بهذا الشارع كثيراً بصحبة جمال ونحن في طريقنا الى المقهي وأذكر أنه أشار مرة الى بيتك وقال هنا يسكن - ولم يذكر أسمي - وحال ان جلسنا سألته مبتسماً .

- كنت تقصدني ام صدقة ؟ أجااب مداعباً .

- تستطيع أن تجمع بين القصد والصدقة - ثم أستطرد في جد بعد فترة صمت قصيرة - الحق اني كنت أرغب في لقاءك ، فقد مرتني محادثاتنا ذلك اليوم

ووجدتها ممتعة وذات نفع .. انني أشكرك، تمتعت في استغراب - تشكرني من أجل أي شيء .

تمهل بعد تفكير وأجاب في اناة وتوكيد - انت أرحت اعصابي وواسيتني وخفت عني مصابي الاليم وأبديت اهتماماً في موضوع دراساتي - ولم يقل اختراعي - وأظن انك كونت فكرة لا بأس بها فيما انا أتوفر على انجازة في هذه الايام . كان جمال رحمه الله مثلك في هذه الخصال يفهم ويشجع ولا يبخل بمعونة ثم أستطرد بصوت متهدج - كان قلبي كله يرتاح اليه وأسفاه - سالت على اجفانه دمعتان أنتشرتا على حفافي عينيه وجعلتهما بلون الزجاج ، إلا أنه تماسك عن البكاء فحولت عنه ناظري والتزمت الصمت ، قال - بالامس حاولت أن أجلس في المقهى الذي أعتدنا الجلوس فيه فلما بلغت المصطبة لم أستطع أن أدنو منها وأجلس ، شعرت أنها تزجرني وتكاد تلتهمني فمضيت مسرعاً وأنا أعالج دموعي لثلاث تنهر .

قلت مواسياً - أنك رقيق العواطف الى حد المرض .

أكد بقوة - فعلاً مرض ، لقد أوقفت تجاربي منذ وفاته ولم أعد أدخل الغرفة المعدة لاعمالي ، أقفلتها وأخفيت المفتاح في مكان ما في بيتي ، وانني صرت أشعر بالفراغ المضي والتراخي والكسل والذهول كأنني قد تبت حتى عن معرفة نفسي .

وجدت أنني ذا نفع لهذا الحائر الولهان ، وأستطيع التسرية عنه ولو ليوم واحد ، ولن يلزمني لاداء هذا الفضل سوى مجاراته والتلطف معه وتقبل دعاواه . قلت له انني سأخرج معك هذا اليوم فتتجول حيثما تريد ونعود في الليل .

أنبسطت أسارير محمد راغب وبان في حركاته الانشراح والرضا . كان الوقت مساء من الأيام التي تسبق الحريف وتعقب الصيف ارتديت ملابسني

وأصطحبته معي الى الشارع، لاحظت انه يتجه الى المقهى، فلم أعارض بل تركته يتجه حيث يشاء فاني متطوع لمرافقته الليلة بطولها. بلغنا المقهى ومضينا عبر المصاطب وهو يتقدمني وأنا من ورائه كآلة صماء مسحوبة قال - ها هنا مكاننا المفضل هيا لنجلس - فأمثلت أمره وجلست .

كنت قد رأيتهما غير مرة يجلسان في هذه الزاوية الظليلة المنعزلة ولاحظت أنه عمد أن يجعل مكاني في الجانب الذي أعتاد جمال أن يشغله ، كما لاحظت أنه أتخذ هيئته الطبيعية مبتسماً بين شاربيه أبتسامته المعهودة في الأيام الخوالي عندما يكون بصحبة جمال . لم يرفع ناظره نحو وجهي انما خفض رأسه الى الارض وواصل ابتسامته العريضة ، خيل الى انه يستحضر صورة جمال في ذهنه ، ثم أفاق بغتة من ذهوله وقال - منذ الحادث لم أفعل شيئاً هاماً ولم أتقدم خطوة واحدة فقد تركت كل شيء على حاله .

سألته مشفقاً - هل تحتاجني لشيء ؟ لعلي أستطيع معوتتك . أنك تعمل في الميكانيك كما تقول ولو أنني غير ذي اطلاع في هذا الموضوع . قال بأشراح - هذا فضل كبير ، وهو الامر الذي أريدك أن تؤزرنني به الا ان ذلك لا يتم ونحن جلوس في المقهى .

أستفسرت - كيف اذن ؟ قال - تفضل معي الى البيت فأريك مخططاً للجهاز الذي أعترم صنعه كما أريك بعض الادوات الصغيرة التي صنعتها بنفسي من أجل أن يتركب من مجموعها الجهاز الكامل .. على أية حال لنسترح قليلاً . جلسنا نحو نصف ساعة لا نجد مناصاً من التحدث عن جمال ، فعاد محمد راغب يرثيه ويعدد مناقبه .

قلت في ضجر - تلك مشيئة الله وهي بالوقت ذاته سنة الحياة . موت وحياة

وحياة وموت وهكذا تتعاقب الأجيال واحداً بعد واحد .. ثم أين هم البشر الذين عاشوا فوق هذه الارض التي نظأها منذ مئة عام أو مائتي عام ، كلهم ماتوا وتحولوا الى تراب ، ورويت له حادثة رأيتها بعيني قبل بضعة أيام . في جانب من شارع شيخ عمر تقع مقبرة قديمة كبيرة جداً شق في وسطها شارع عريض ورصيفان كبيران . نبش من اجل اتمام هذا العمل عشرات القبور واخرجت عظام الموتى ووضعت في اكياس ورقية يستعملها ارباب الدكاكين ، ودفنت جميعاً في حفر صغيره خارج المدينة ، مررت يوماً بهذا المكان ونظرت الى الحفر الخالية كانت مسودة مشربة بالزيت ، قلت هذا هو الانسان كان في يوم مثلي ومثلك يفرح ويتسم ويعيش في الامال ويحب ويعشق ويبكي ويملاً الفضاء آهات وقهقهات وضجيجاً .

— كل هذا صحيح — اجاب المحامي — كلنا نفهمه ونقر بها قرارنا بالشمس والقمر والصيف والشتاء والمساء والليل ولكن عواطفنا هي التي لا تحتمل . ليس ثمة توازن بين المصائب وقوة احتمال العواطف . عواطفنا اضعف من ضربات القدر ومن هنا تنشأ آلامنا ومتاعبنا .

— قلت تريد ان تقول ان المصائب الذي حل بساحتك بوفاة جمال كان اشد من احتمال عواطفك ولا اقول اعصابك

رد بحزم — بل الاصح اعصابي هي التي تزلزلت في المكان الاول —
اعتصم بالصمت بعض الوقت مواصلاً سحب انفاس كثيفة من دخان سيكارتته ثم لطم ركبته قائلاً — تفضل لنذهب الى بيتنا — نهض واقفا فخذت حذوه فيما هو تقدمنى الى القهواتي ودفع اجرتينا سوياً ثم خرج الى الشارع واستأجر سيارة تاكسي دعاني اليها وجلس الى جانبي في المقعد الخلفي وانطلقت بنا . ذكر للسائق عنواناً فنهز هذا رأسه وصمت

سالته - هل كان المرحوم جمال يزورك كثيراً في بيتك ؟

اجاب - ليس كثيراً والسبب كما ترى ان بيتنا يقع في ظاهر المدينة بينما بيته في قلب المدينة فاستطيع ان ازوره دون ان أجشمه عناء زيارتي الا في النادر ، وثمة سبب آخر ان المرحوم من غير اولاد سوى ابنته سليمة ، بينما لدي في البيت اربعة اولاد صخابون يحدثون من الضجة مايزعج كل زائر ... والحقيقة اني اجد في بيته الهاديء التنظيف المرتب راحة ومتعة .
خطرت لي مريم وما هو موقعها من هذه الزيارات الملحاحة فسألته -
ارجو الا تعدم الراحة والمتعة حتى بعد وفاة جمال ... ان له زوجة رائعة .
رائعة خلقاً ونظاماً - عقب في تأكيد حار - انك فلما تجد مثيلاً لها
بين النساء .

مضت السيارة في الشوارع العريضة الحسنة الصقال وكانت تلتمع على الارصفة اضواء البيوت الفخمة والصالونات والاروقة والمشارب . ثم اجتزنا نصب الجندي المجهول وعرجت السيارة يساراً وواصلت سيرها في زقاق غير معبد قطعته في بـطء حتي وقفت عند احد الابواب . تمتم محمد راغب - هنا البيت تفضل - اتجه نحو احد البيوت واخرج مفتاحاً صغيراً اوجله في ثقب الباب فانفتح عن مجاز معتم
قال المحامي - جميعهم قد خرجوا لزيارة بيت اخي ... انا وحدنا
في البيت .

لم يهمني هذا الايضاح ، انما وجدت فيه راحة اضافية ومجالاً اوسع للتماس المزيد من حقيقة محمد راغب. مضى في اتجاه سلم في أدنى البيت ارتقاه بخطوات سريعة ، ثم انتهى الى غرفة منعزلة في السطح فتح بابها ودفعه بقوة اذ يبدو أنه عصي كما يحدث للابواب ابان ايام الشتاء ، وتلمس

المحامي سبيله في الظلام الى اضرار الكهرباء ، بينما تسمرت عند العتبة انتظر ما الذي سوف ارى اذا انسفح الضوء . التمتع ثلاثة مصابيح في ان واحد مسحت الظلمة وكشفت للعيان غرفة متوسطة الحجم على جدرانها رفوف سميكه عريضة تحمل قطعاً معدنية لأدوات وآلات مختلفة وفوانيس ومطارق ومهاريس وزجاجات عميقة اللون لا تستبين العين محتواها .

وعلى الارض طاولة مستطيلة من الخشب الخشن القوي الذي يستعمله التجارون . فوقها اشياء كثيرة يألفها المرء عند مصلحي الدرجات ، وليس ثمة شيء غير مألوف يستدعي التأمل سوى بعض الاجهزة المخترية . قال - هنا اجرى تجاربي في الآلة ذات الاندفاع الذاتي التي تعمل من غير وقود وتوفر للانسان جهداً كبيراً وربحاً يقدر بالملايين في العام - ورأيته يرفع عن الطاولة دواليب صغيرة واقلام حديد مصقولة مختلفة السمك ومسالك ومحارق ذات فتائل خيل الى انني في دكان من دكاكين السحرة في القرون الوسطى .

قال متبهاً - انني اقرأ في بعض مؤلفات جابر ابن حيان وهو كيمائي وعالم واسع التجارب .

قلت - نعم انني قد سمعت الكثير عنه ، له بحوث قيمة ووضع اسساً ونواة لكثير من العلوم الطبيعية والكيمائية التي ازدهرت فيما بعد في ارجاء أوروبا .

قاطعني مصححاً - ليس هذا فقط ، انما هو الواضع الاول لعدد من من العلوم . وما كان على علماء اوربا فيما بعد بما يقرب من ستمائة عام او يزيد الا التثبت والتزود من معارف هذا العالم الجليل .

ثم شرع يشرح لي تجربته والآلة المزمع بناؤها : وعلى اية حال لم

افهم منه كما ينبغي ولا ادري لم لم افهم . قد اكون غير متبته او لست على استعداد من الناحية النفسية او وجدت الامر كله عبثاً ومضيعة لا غير .

قال متأسفاً - ان جمالا كان يفهم كل شيء وكأنه ميكانيكي بالفطرة، كنت انقل اليه يومياً اخبار تجاربي ويشجعني - انه يريد مني التشجيع ولكن كيف اشجع ولاي شيء لست ادري .

ثم انتقلنا الى غرفة اخرى عادية معدة لاستقبال الضيوف ، فلاحظت انها لا تخلو من اشياء نادرة غريبة . كانت منافض السكاير مصنوعة من القواقع الضخمة ذات اللون العاجي ، وعلى الحائط تروس حريرية ودروع واواني نحاسية منقوشة تصنع في الهند ، وقد نصبت في جوانب مخفية من الغرفة مصابيح كهربائية، كان احدها تحت سطح المنضدة من الداخل يسفح نوره على الارض مباشرة حيث يجعل الاشياء تلقي ظلالاً مستطيلة وتبقى وجوه الجالسين في العتمة بينا اقدامهم تنكشف للنور .

قال :- يعجبني احياناً وانا اطالع القضايا منبطحاً على الارض فوق السجادة او الحصير في الصيف معتمداً رأسي بكفي الاثنتين ؛ اني اجد ذهني في هذه الحالة اكثر صفاء واحد فطنة حتى ان كافة مواد القوانين تمر عبر ذهني كحافلات القطار فاضع يدي على التي أراها اكثر انطباقاً واوفي بالعرض .

قلت مراراً - ان صديقنا جمال رحمه الله لم يكن يصطنع هذه الجلسة عند ممارسته لزرق الابر في المنزل ، اتما تختلما كان المرحوم يوقد النار في المدفأة حتى في أيام الصيف ويضع فوقها اناء الماء ليغلي ويتعقم ثم

يباشر عمله وهو واقف على قدميه . كانت له مهارة مشهودة ، وأحسب انه خير رجل زرق الناس بالابر ، لا يكاد المرء يشعر باي الم ولا يمكن ان يحدث ما تسوء عاقبته .

قال موضحاً :- هذا صحيح جداً ولكني انبأت جمالاً بطريقي المثلي في دراسة القضايا وكنت كلما كسبت دعوى واستلمت اجرتي عنها يتسم لي ويقول مازحاً - انك درست دقائقها وانت منبسط على الارض - تعضن جبين المحامي في انزعاج حينما مامت قطة في مكان ما من البيت - قال هذه القطة اللعينة وجدت سبيلها البنا لتاكل الجرذان . هذا تدير زوجتي من غير ريب ولو انها تكتم عني الاخبار والحقيقة انه تدير صائب . نترك الامر للقطط لان هذا من واجبها ومن اعمال غريزتها ، والقطط أدرى بعدد الفئران التي تأكلها بحيث لا تجعل هذا الحيوان الصغير ينقرض . بينا نحن البشر لا نحسب هذا الحساب وربما دفعنا حقدنا على هذا الحيوان الضعيف الى إباده ومحوه . ان الانسان مهما قطع اشواطاً في طريق الحكمة فانه لم يبلغ مطلقاً حكمة الطبيعة ولا يستطيع ان ييزها في قليل او كثير، ولما هممت بالانصراف قال المحامي مودعاً - ارجو ان يكون بيننا لقاء اخر ولا اظن ان ثمة ما يمنعك من ملاقاتي في المقهى .

اجبته في تأكيد بارد :- سافعل كلما وجدت فسحة من الوقت .
رجاني في حرارة :- حاول لكل انسان اوقات فراغ ولكن العبرة في تكريس هذه الاوقات وطريقة توزيعها . ارجو ان ينالني نصيب من اوقات فراغك كما اني اهبك اوقات فراغي مهما كثرت .

كان في نيتي ان اجعل موضوع محمد راغب غير ذي اهمية بالنسبة لي

قد يكون الرجل اسير واهمة من الواهيات او منحرفاً أو شاذاً ، وقد شعرت بعد زيارتي الاولى لبيته اني تماديت معه وسمحت له ان يتصور انني قد تطوعت لتمثيل دور جمال الذي يريد لي .

وزارني مرة اخرى في بيتي وكان في حال قلقه يؤذن صوته بعظم الضجر الذي صار يستشعره من وحدته القاتلة . قال : - انني متعب ايها الصديق واشعر بالخمول يتاكلي وقد اهملت اعمالى ورفضت بعض المراجعين وتخلقت عن حضور جلسات المحكمة . اجد كأنما بعض الخيوط التي تشدني الى الاهتمام بمصالحى ومكاسي قد تقطعت .

جلسنا هنيهة وانا احاول ان اشجعه وأسري عنه . قلت :- ليس ثمة من سبب لهذا اليأس ؛ انك رجل كامل ومثقف ولك افكار نيرة - قاطعي بفتة .

- قل لي بربك هل اعجبك اختراعي ؟

وجدت ان امتداحي لاختراعه المزعوم فيه التسرية المطلوبة لاحزانه وهو العصب الحساس الذي يورثه الابهاج . أجبته مؤكداً - أنه اختراع رائع حقاً وأعتبره حدثاً لامعاً في عالم الميكانيك ، ولكني مع مزيد الاسف لست على شيء من الفهم .

نصحني في رفق وهو يكاد يلمسني - لو كنت ملماً بالميكانيك لفهمه من غير عناء . انني استطيت ان ازودك ببعض الكتب التي تبحث في الميكانيك واصول تشغيل المكنائن وتركيبتها ، لو ألقيت عليها نظرة سيرة لفهمت اسرار هذا العلم العظيم ، ولكن في ميسورنا نحن الاثنين ان نتحدث وتناقش ونستثمر أوقاتنا ، ولكني لست ادري كيف اشوقك .

كانت كلماته الاخيرة توحى بحسرة الرجل اليائس من اصلاح

اعوجاج أمري ما ، وان هذا الاعوجاج قد اورثه شتى المضايقات وفوت عليه فرصاً لا تعوض ، ولكن ما ذنبي انا وما هي مسؤولتي تجاهه اني لا استطيع الا ان اكون رقيقاً به .

انطلقنا الى المقهى وجلسنا في مكاننا وحاولت بادي الامر ان انقل الحديث الى امور عامة ، فوجدت الرجل متبعاً للاحداث الهامة قدر ما تنقله الصحف والاذاعات ولكنه ليس من هواة السياسة واصطياد المناصب والتظليل والتزوير لأحد من الناس ، الا انه مولع بالتعرف على القضايا العظيمة التي تتصل بحياة الناس ، واذكر ان احداث الزلزال في المغرب التي اودت بحياة الالاف كان لها رنة اسي في نفسه . قلت بأسف - عوائل بكامل افرادها طمرت تحت التراب . الرجل وزوجته واولاده وامه وابوه خلية اجتماعية مزودة بكل عناصر الانماء والحياة .

قال بعد تأمل - مضير اهون ذلك الذي يلقاه كل افراد الاسرة من المصير الذي يقع لاحدهم او بعضهم ليس ثمة حزن يتخلف في صدر احد - صمت بضع لحظات فيما كنت ارقب وجهه الغارق في التفكير - استطرذ يقول - أتساءل احياناً ما الذي يدعوننا الى البكاء على الميت والتفجع له ، انك عندما تنظر الى وجوه الموتى وهم مضطجعون على اسرتهم لا تجد مطلقاً ابي اثر من اثار الاسف على الدنيا ... انهم مرتاحون وخالدون الى الدعة كأنهم يقولون لقد استرحنا وانهمنا محكوميتانا ولكنك تسمع بدل ذلك العويل والنحيب وشق الجيوب كما يقولون ثم لبس السواد والانتطاع عن المسرات ، وبالنسبة للنساء يضررن عن الاستحمام لاشهر عديدة . ان والدتي امضت سنة كاملة من غير استحمام ، فتشقق جلد ظهرها وتقيح وكادت تموت بداء الجرب . واتساءل احياناً في قضية تتصل بحرفتي

كمحام . ان القوانين العقابية قد وضعت اقصى عقوبة تنزلها بالمجرم هي ازهاق روحه من بين جوانحه. تلك اقصى العقوبات واشدها ، وتنشط نحن المحامون ابلغ نشاط من اجل زحزحة المتهم عن هذه العقوبة ، ونقبض لقاء اتعابنا الاف الدنانير ، ونطالع عشرات الكتب ونديج اروع الكلمات المؤثرة والشجية والمفحمة ، ونأتي بضروب المكر والمراوغة لتسفيه شهادات الخصوم وتفنيدها . اتساءل لم هي عقوبة الموت هي اقصى العقوبات . انك ان حكمت على متهم بالاشغال الشاقة وفي اعماق زنزانه فيها اسراب الحشرات والفئران المتوحشة التي تنهش السجين وتعذبه وتلوث طعامه وهو مثقل بيبضع ارطال من الحديد وفوق جلده ملابس رثة خشنة ، تكون ازاء هذا الحكم قد مننت عليه واكرمته، بينا الامر لا يعدو ان يكون هواناً في اقصى صوره . اريد ان اقول لو ان الانسان يفهم شيئاً عن الآخرة ، أي العالم الذي يلي عالم الاحياء ، لتغير القانون ولم يوضع بالشكل الموضوع فيه الان . ولو ان طبيعة الانسان تغيرت واستساغ الموت بدلا ان يتجنبه ويخافه لكانت اقصى العقوبات هي السجن المؤبد ، وكنا نحن المحامين نسأل المحكمة ان ترحم المتهم وتعدمه وتجنبه الزنزانه والحبس .

ابتسمت لكل هذه التخريجات التي جاء بها محمد راغب ووجدتها في الحق ظريفة ولا تخلو من اثار عقل يحب الاستقصاء والتعليل والافتراضات . واتصلت موضوعات الحديث الى شؤون كثيرة ، ثم سأته عما فعله في موضوع التقاعد الذي تستحقه أرملة جمال .

قال - « انني راجعت وزارة الصحة وقدمت طلباً نيابة عن مريم واستحصلت الاوراق والكتب اللازمة وحملتها الى دائرة التقاعد والمسألة تسير سيرها الطبيعي ، وبالإضافة فاني قدمت لها بعض المعونات الصغيرة

لتدوير امورها والافئاق على ابنتها قدر ما تسمح لي امكانياتي المالية « ثم استطرد بنبرة مشفقة « اني اودي واجباً . ولولا ان يقع ما يكدر الصفو لحملت الارملة مع ابنتها ان تقيما في بيتي ولكني اخشى الا تنجح الفكرة بسبب فقدان الانسجام مع زوجتي » .

كان هدي في ان اتجنب التحدث معه عن مشاريعه الميكانيكية لاني اراها عقيمة . ومن الخير ان ينسى الموضوع ويطويه وينصرف الى حرفته الاصلية ، ولكن يبدو انه يعلق آمالا ضخاماً على اختراعه المزعوم فقد سأني على حين غرة - هل بالامكان ان تزورني اليوم ؟

تحييرت وصمت الا انه نظرنى في حدة منتظراً ان اجيبه .

سألت في ضيق - علام ؟

قال - اني اعزم تركيب بعض الاجزاء الصغيرة في الالة ويسرني ان تكون الى جانبي للمعاونة .

اجبت معتدراً - « ولكنك ترى اني لا افهم شيئاً في موضوع الميكانيك ولا اجد نفسي ذا غناء » .

رفع راحته اليمني الى جبينه وحكه - ثم امر اصابعه وخلل شعره الكثيف المضطرب . لقد شعرت بالملل لهذا الرجل وغدت لجاجته الفارغة تثير اسممزازي من شخصه كله .

قلت مستطرداً بنبرة باردة مؤنبة - انك ان كنت تعجز عن اجراء تجاربك بنفسك فالاجدر بك ان تكف ، ليس ثمة عالم في ارجاء الارض يبحث عن رفيق ليجلس الى جواره يشجعه ويؤنسه .

قال في لوعة - هكذا تقول وقد صرت اتذوق صداقتك ، بعد ان فقدت صديقي جمال .

أجبت متبرماً وبشيء من القسوة « ليس من واجبي ان اخلف الميتين
واتقبل صداقات مفروضة علي ».

واسترسل يقول بنبرة حزينة شاكية وكأنه يحدث نفسه « صداقتي
مكشوفة صريحة خالصة يعلم الله انني لا اريد شرراً بأي مخلوق مهما قلت
قيمته . انني اشفق على كل المخلوقات حتى النمل والجرذان ، ولكن لم اقابل
بالجحود والنكران لم لا القى من يواسيني ويسري عني ؟ »
سألته في جفاء - ما الذي تريده يا سيدي ؟

- ان اجبت فهل تنفذ ؟

- انفذ ان استطعت .

- لنذهب كرة اخرى الى منزلي .

وافقت دون حجاج ، خرجنا الى الشارع وركبنا السيارة فمضت
بنا في الشوارع نفسها حتى وصلنا المنزل دون ان نتبادل في الطريق حديثاً
هاماً . رأيت في هذه الزيارة ولديه الصغيرين . وكان كلاهما يتبعنا انظاره
حينما مررنا بالمجاز ووصلنا السلم . كان الاكبر يبدو ذكياً وذا لسان منطبق
ويتحدث الى ابيه وكأنه زميله او صديقه ، والاخر كان صغيراً لم يستقم
لسانه بعد . يقف عند عتبة غرفة النوم وينقل بعض الاخبار الى امه التي لم
نشأ ان تخرج لاستقبالي . ويبدو ان الولد الاكبر قد احس بفاجعة ابيه
بوفاة صديقه الحميم وشاركه الحزن فقد سأله ان كان قدزار السيدة مريم .
فاجابه محمد راغب اجابة رقيقة - نعم زرتها .

وعقب الولد وهو يوجه الخطاب الي - « اتنا تألمنا كثيراً لوفاة
العم جمال . كان انساناً محبوباً كثير الحسنة » .

سألته - كيف عرفت ؟

قال - كنت مريضاً في السنة الفائتة ، فقد أصبت بالتيفوئيد ، وكدت اموت لولا ان يسعفني العم جمال كل مساء فيزرقني بآبرة ويستفسر عن صحتي وبطمانني ويسليني . كنت احبه كثيراً ، ولا يقل حزني من اجل وفاته عن حزن ابي .

اردف محمد راغب متفجعاً - الككل يحبونه لم يصنع غير الخير في حياته .

واذا ما دخلنا غرفة لعمل التي يضع فيها محمد راغب اشيائه وجدتها كما تركتها اخر مرة . مهملة ومغيرة قال - « لشد ما يتراكم الغبار » - وشرع يسمح بعض الاشياء بخرقه بيضاء كبيرة . وسرعان ما اندمج ابنه الاكبر في هذه العملية ، فاحالاً جو الغرفة الى عجاجة تضايق الانف . قال - « اعتزم ان اشتغل قليلا طالما انت معي . تستطيع ان تفرج وتستفسر » فوافقت وانا اسخر من هذا العبث كله . جلست على كرسي كبير مريح يمكن ان يتخذ منظر حراً للاستلقاء وربما النوم بينا اتجه محمد راغب نحو المشجب ورفع منه منزراً ايض وارتهاه فبدأ لي اشبه بالمضمدين الذين يلقاهم المرء في اروقة المستشفيات ، اتسمت لهيئته ولم انطق بحرف وشرع يعمل ولست ادري اي شيء يعمل . كان يدير دولاباً صغيراً خشن السطح يجلو به بعض القطع المعدنية ثم يحملها الى هيكل حديدي يحاول ان يثبتها فيه وينظر بين حين واخر في صفحات كتاب مهلهل من الضرب الذي يحوزه قارئ الكف عند ابواب المساجد .

جلست نحو نصف ساعة لم اشعر بالضجر قط انما استغرقتي التفكير في هذا الصديق الجديد الغريب الاطوار الذي اندفع الى صداقتي اندفاعاً غير ارادي . كنت ارفع اليه ناظري واتأمل في يديه العاملةتين في حمل المبارد

والمطارق الصغيرة ورأسه الكث الشعر المنتهي بسالفين موخوطين بالشيب .
قلت لنفسى هل انا اودي واجباً انسانياً تجاهه ؟ ترى لو رفضت صداقته
وامتنعت عن لقائه وتركته لوحده ما الذي سوف يحصل له . ينتحر ام يجن
ام يثوب الى رشده .

قال في عزم - اني قريباً افرغ من - انجاز اختراعي فلم تعد امامي
مصاعب كثيرة فقد ذلتها جميعاً - ، ثم وضع ساكناً في ثقب الكهروباة وضغط
الزر فسرت القوة الى محرك ما فصار يطن ويدور . وطن ودار معه جملة
دواليب مركب بعضها الى بعض ، وصار يشرح لي ولم ارفي شرحه حتى ذرة واحدة
من الاهمية . قال اخيراً - ثمة اشياء اخرى تضاف الى هذا الجهاز فتجعله
يعمل من غير معونة الكهروباة وهنا تكمن مكانة الاختراع واهميته .

ضائق نفسي من حديثه فاقترحت ان نعود الى المهى فوافق وقال -
ليس من المفروض ان نصنع اشياء كثيرة في جلسة واحدة ، المهم ان يخطو
الانسان في اتجاه هدفه بعزم وبيصيرة - ادرت وجهي وابتسمت هازناً -
لاشك ان كلمة الجلسة استعارها من قاموس المحاكم .

أمضيت معه ذلك المساء وانا اقلب وجوه الرأى للاهتداء الى حل
انقذه به من ورطته . وفي المقهى قاذني الى مكان - جمال وجلس جواري
منتشياً بالراحة فرحاً مبتسماً لكل كلمة تلفظها شفطاني حتى وان كانت من غير
معنى . ثم ودعته وهو يرمقني بنظرات مشفقة ان اضرب له ميعاداً - قالت
بعد بضعة ايام تستطيع ان تزورني - فابتسم ومضى الى بيته .

خطرت لي فكرة طريفة هي ان احاول صرفه عن مزاعمه في علم

الميكانيك واختراعه الخيالي ، ذلك بان اناقشه في امور قانونية هامة بصفة
مستفسر عن نقاط لست افهمها . ولاجل تنفيذ ذلك استعرت من احد
الناس كتابا في قانون العقوبات الشهير الذي يتداوله المحامون بكثرة .
تصفحت هذا الكتاب ثم شرعت اقرأ بعض المواد من صفحات مختلفة
فعلقت بذهني المادة ٥٠ والمادة ٥١ حول الدفاع الشرعي عن النفس
وعن المال .

حالما لقيته في المرة التالية لم اترك له فرصة حديث . قلت في تأثير -
حلت بجار لنا مصيبة كبيرة اوقعته في ورطة بالغة التعقيد .

استدار نحوى ورشقي بنظرة مستفسرة سألني كيف ؟

قلت - في نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكنا جميعا ننام
فوق السطوح سمعت فجأة عدة اطلاقات من مسدس تصدر من بيت الجار
فخيل الى اول وهلة ان احدهم قد انتحر ، فتركت فراشي مذعورا
لاستطلع الخبر ، ثم ما لبثت ان سمعت زعقات حادة وعويلاً .. تدرى
ما الذى حدث .. سطا لص عل بيت الجار واقترب الى سرير احدى النساء
محاوفا سرقة حلها وهي قلادة واساور وسواها فشعر به الزوج فسحب
مسدسه وقتل اللص ولكنني عندما ابصرت باللص وهو ملقى مضرجا بدمائه
جوار سرير المرأة لقيته يحتذى حذاء وجوربا جيدين ويضع ربطة على عنقه،
ووجهه حليق وشعر راسه يومض بالفازاين وكأنه قادم على موعد غرام
لأصاف عاديا يسطو على البيوت . بينا الزوج راح يقسم اغلظ الايمان انه
كان يحاول سرقة حلي زوجته ... ترى اى ادعاء انفع لهما الحلي ام محاولة
الاغتصاب المرأة وهتك عرضها .. اني لا افهم كثيرا هذا في هذا الموضوع.
فكر هنيهة وبروح حماسية نشطة للكسب قال - لو كان لدى من

الوقت الكافي لتوكلت عنه ولو وجدت مخرجاً سهلاً أميناً ولكنني لا أستطيع في الوقت الحاضر بسبب انشغالي .

قلت - انني لا أسألك ان تتوكل ام لا . أنا أسألك ما الذي يذكره القانون في هذه القضية .

اجاب شبه مكره - المادة ٥٠ تتحدث عن هذه الجريمة وكذلك المادة ٥١ ولكن ايهما انفع المادة ٥٠ ام المادة ٥١ كلاهما تخص الدفاع الشرعي وتبيح القتل عمداً وقصداً في حالات معينة لا مجال لبحثها الان . قلت - الدفاع الشرعي عن النفس والدفاع الشرعي عن المال ثمة حالتان كما اعرف .

اجاب في ارتياح - انت تعرف جيداً هذه المسألة ... نعم حالتان بكل تأكيد ، حالة الدفاع عن النفس ، وحالة الدفاع عن المال .

سألته - هل تتوكل في هذه الدعوى ؟

قال - لا أستطيع ، ولا وقت لي ارجو المعذرة .

- اذن نورني ببعض التفاصيل

- ليست معي كتب في القانون

- استحضرها .

نظرتني باستغراب ولكنه لم يشأ معارضي قال في تريث - يا سيدي انني لا انظر في مثل هذه الدعاوي . انها جزائية وعملية شبه محصور في القضايا الحقوقية .

- انا لا اسالك ان تتوكل ولكن وضح لي ما هي هذه الحالات .

- موضحة في قانون العقوبات . تفضل معي الى البيت وخذ هذا

القانون وطالع فيه اذا شئت . ولكن ما الذي يدفعك الى الاهتمام

بهذه المسألة؟

- لي ولع في دراسة القانون كما ان لك ولعاً في الميكانيك ، وان وجدت دراسة القانون كثيرة علي فهي ليست باكثر من دراسة الميكانيك عليك.
فكر هنيهة وقال في تهكم - ليس بمستطاعك ان تبدأ منذ الان بدراسة القانون .

أجبت بذات صوته المتهمك - استطيع كما استطعت أنت . وربما اصل الى رتبة مشرع او رجل قانون كبير لو تفضلت واعترني بعض الكتب وشرحت لي النظريات وتدارست معي .

اجاب في ضيق - يا اخي انا لا استطع .

- كيف؟ انك محام ورجل قانون والموضوع من صميم اختصاصك .
- ليس لدي وقت .

وهنا وجدت المناسبة كي ارد عليه بصراحة - وانا الاخر لا وقت لي .

شعر انني اعتزم التخلص منه . وان جراً وسأل في اى مجال ان لاوقت لي لاجبت الميكانيك . ولقلت انه في محاولة يائسة وبائسة وان تشر تجربته اي نفع مطلقاً . وكل ما يفعله ويسعى اليه ويتصوره هو ضلال في ضلال . ولكنه لم يتكلم بحرف ولا شك انه ادرك انني قد انتهيت من صداقته . ولم يلبث طويلاً فسرعان ما ضم شفتيه في ألم وخيبة .

قال وهو يتأهب للانصراف

- هل استطيع ان انتظر زيارتك في وقت قريب؟

اجبت في اعتذار جاف - انني منشغل بالاهتمام بقضية الحار، حدثك عنه واعتزم مطالعة بعض كتب القانون ودراستها مع احد الفقهاء .

قال في بداهة - التحق بكلية الحقوق . ذلك انسب واقل متاعب
واعم فائدة .

قلت في مراوغة - كلا انما اريد ان احدو حدوك لا اعتمد على
الكليات او المدارس انما على السعي الشخصي او البحث الذاتي . انني اريد
ان اكون عصامياً متحرراً من قيود النظام ورحلة الصف كما فعلت انت
في دراستك للميكانيك التي تدعى انك الممتها وبقرت بطنها واستخلصت
احشاهها وصرت تخترع وتتسابق مع العلماء .

انقطع محمد راغب عن لقائي ولم اعد اعثر له على اثر حتى انني كنت
اجد له بعض الاعلانات في الصحف يدعو ارباب الدعاوي الى مراجعته في
نقابة المحامين صباحاً . هذه الاعلانات اختفت ايضاً .

ومضت بضعة اشهر وهو محتف عني ، فعمجت لامر اختفائه وترك
في نفسى هوى ملحاحاً لاستقصى حاله واستطلع ما الذي انتهى اليه
اختراعه المزعوم .

كنت اعلم انه على صلة ما بمریم ارملة المرحوم جمال، فقد بلغني غير
مرة انه هب لمساعدتها كما يجدر بصديق وفي امين ، وتوكل عنها في استحصال
التقاعد وتكلفت مساعيه بالنجاح . ولا زلت اذكر النبرة المشققة التي
يصطنعها كلما تحدث حديثاً يتعلق بالارملة .

عقدت العزم ان اقوم بزيارتها واستطلع كل خفايا المسألة . كان صباح
جمعة في اوائل شهر تشرين الاول وقد لاذمعظم الناس بالغرب بعد ان
اجتاحت المدينة موجة مفاجئة من البرد غير منتظرة . كانت الشمس ساطعة
قوية تهمر على اجساد المارة فتضايقهم بعض الشئ ولذا وكان الجانب
الظليل من الشارع يموج بعدد كبير منهم .

بلغت الزقاق في نحو الساعة العاشرة فتذكرت ايام صداقتي لجمال
اذ بدا كل شيء على حاله لم يتغير .

وعندما بلغت الباب استشعرت الخجل والتأنيب ، ومع ذلك فقد
طرقته رغم أنه مفتوح نصف فتحة . ووضعت قدمي في المجرار الصغير الضيق
وخطوات عدة خطوات ثقيلة مسموعة . مرت بي لحظات حرجة قبل ان
يظهر لي رأس مريم من احد الابواب . صاحت في ترحاب - « تفضل
اهلا بك وسهلا » .

ارتفع حاجباها وهشت في استئناس - « زيارة كريمة اهلا بك » -
تقدمت في خجل الى الكرسي الكبير المبطن الذي اشارت اليه فاقتعدته
ونظرت مليا اليها .

كانت في حال افضل ، فهي ارشق قامة وانحف وقد اسبغ عليها ثوبها
الاسود الطويل الضيق الاكمام وقار المرأة الفاضلة المترفعة قليلا كما ان
صوتها المبجوح ذاالصدى الثقيل قد تلطف الى حد ما وزايلته البحة ، وتركب
في مكان سنها المقلوعة في واجهه القم سن اصطناعية ، وشعرها كعهده فاحم
عميق السواد ولاشك انه مصبوغ بعناية ومرتب بيد متمكنة .

قلت - يبدو انك على اهبة الخروج .

قالت في ظرف - لا بأس انك لم تزرنا منذ وقت طويل .

غزت ذهني ذكريات جمال الحلوة وجلساته المتطاولة في هذه الغرفة
فغلبني الاسى وقلت - « اخر مرة ايام العزاء » - ارتسمت الكتابة على وجهي
وسرت بصورة مشوشة الى وجه مريم على نحو اضطراري .

قلت بعد صمت - « ارجو الا تكوني قد لاقيت المتاعب من اجراء

ملاحقة معاملة التقاعد »

تهددت في ارتياح - « الحمد لله الذى يسر لي بعض الاصدقاء
فجنبوني المراجعات ووفروا لي تعباً كثيراً . وانت تدرى أية دوائر نملك
وكيف تجرى الاعمال وكيف تبدأ وكيف تختتم » .
هزرت رأسى - « انها بلا شك تبعث على البلى الضيق ... ومع ذلك
فانت في خير » .

اكدت كلامى في تقاؤل - « الحمد لله انى في خير، وسليمة بلغت الصف
السادس ومجتهدة ... اليس كذلك يا سليمة » - ابتسمت الطفلة وهزت
راسها - استطردت مريم في فخر - « اريد ان اجعل منها طيبة حاذقة لها
من الذكاء ما يؤهلها لكل دراسة » .

عقبت قائلا - « مثل ابيها ... كان المرحوم عالما بامور الطب » .
اجابت اسفة وتهكم « كان عالما حقا ومن اجل هذا السبب لم يرفع
ولم يضمن له تقاعد محترم » كم هو التقاعد ؟ سألت
- « اثناعشر دينارا لاغير ، كما يذكر في ورقة الكمبيالة » .
كانت في مزاج حسن ظريف .

سألت بلا تمهيد - الم يكن بإمكان محمد راغب ان يجعله اكثر
من هذا المقدار ؟

نظرتني مليا وهي تحك شفرتها العليا بطرف ابهامها .
جمجمت متسائلة « محمد راغب انك تعرفه اليس كذلك؟ »
- اعرفه جيدا وهو صديقى لاسيما بعد وفاة المرحوم .
- انه صديقك ومع ذلك فانت لا تعرف ما الذى حل به .
سألت في جزع - ما الذى حل به ؟
تهددت ومطت شفيتها - المسكين ... ادخلوه الى المستشفى .

- مريض ؟

- اجل مريض

- آية مستشفى ؟

ترددت لحظة . لم يكن امامها بد من الافصاح , قالت في صوت خافت - « الشماعية، لقد اصيب في اعصابه من جراء فشل مشروعه . كان يعد مشروعا خطيرا يجابه به العالم حيث يأمل ان يصيب من ورائه ارباحا طائلة من المال ولكن يا للأسف ترك مشروعه فجأة وصار يهذي ويعطوف في الارقة اشبه بالمعتوه ... اني الساعة اذهب لعيادته ، ذلك واجب انه صديق حميم وذو يد بيضاء علينا .

سألته في التماس - انت كنت تسمحين لي بمرافقتك اليه ... انني صديقه ولكنني فقدت اثره منذ اشهر .. ذهبت الى منزله عدة مرات ورأيت الى اولاده الصغار ودخلت غرفته التي بعد فيها اختراعه . كان متفائلا كبير الامل ويذكرك بالخير .

سألت في اهتمام - ما الذي كان يقوله عني ؟

- لاشيء هام . كان يذكرك بالخير ويبدو انه كثير الاهتمام بشؤونك . واذكر مرة انه قال شياء عن رغبته في ان تنتقلي مع ابنتك الى منزله وتقيمين هناك .

اجابت باباء - كان اقتراحا غير عملي ورفضته اهذا فقط الذي

ذكره لك ؟

- نعم

تمتمت في يأس - ياله من رجل عجيب يجمع المتناقضات كلها ولن تفهم له في نهاية الامر لوناً خاصاً

قلت - كيف ؟ انني لمست البعض من اضطراب حياته .
اجابت في اسف « اضطراب عقله ياسيدي ... كان ايام المرحوم
جمال اهدأ بالواليق سلوكا » .
- ما الذى كان يريدہ ؟

لم تجب مريم . كان وراء صمتها سر .
قالت في ضجر - « دع هذا الان وهيا نذهب اليه ، لتقف بنفسك
على كل شيء . ثم انني لا اريد ان اكون وحدي ... انتظرنى قليلا ريشما
اودع سليمة في بيت الجيران ، فلا يصح ان ترافقنا الى المستشفى » امسكت
ييد طفلتها واتجهت الى الباب قائلة لها « لن تتأخر سوى ساعة واحدة »
ودست بين اصابعها عشرين فلسا .

خرجنا الى المستشفى انا ومريم . لم تصف شياء الى ملابسها اذ كانت
مهياة ومتبرجة بعض الشيء غير انها سحبت عباءة معلقة على المشجب قائلة -
« الطريق بعيد والسفور غير مستحب » فايدتها ثم مضينا عبر المجاز متجهين
الى الطريق .

كنت اعلم ان مستشفى الشماعية تقع على بعد اربعة اميال شرقي
بغداد يسار الطريق المودي الى بعقوبة . ولكن اية واسطة تصل الى هناك .
كانت مريم تعرف خيراً مني انها قد ذهبت غير هذه المرة لوحدها سراً لذا
كان على ان اتبعها حتى ساحة الطيران حيث سمعنا نداءات تنطلق من
سيارة عمومية ذات هيكل خشبي تدعو الى الشماعية - هتفت مريم - عجل
ها هنا سيارة .

لمت اطراف عباءتها وخفضت رأسها دافعة بجسدها الى مقعد طويل
وعر من غير نوابض فحدوت حدوها صامتاً .

كانت الشمس ساخنة اكثر منها في ساعات الصباح . وان الذين
حسبوا ان الصيف قد ولى في ساعات الليل لمسوا وطأته الثقيلة في ساعات
النهار . وقد اخترقت السيارة في باديء الامر شوارع عريضة مزدوجة ذات
شعب وفروع كثيرة حتى انتهت الى ظاهر المدينة ومضت في طريق متوحد
وسط مساحات كبيرة من ارض قفراء مجدبة . تنهض هنا وهناك مداخن
معامل الطابوق بعضها ينفث دخاناً كثيفاً وبعضها الاخر من غير حياة البتة
اذ قد صدرت الاوامر بهدمها ، ثم يرى المرء الصورة الابدية في اطراف
كل مدينة ، وهي الصرائف والخيام وجمهور الرعاة والفلاحين الحفاة
واكوام الحطب وسرب الكلاب .

بلغنا المستشفى بعد ان تعرجت السيارة عدة مرات في ارض مأهولة
بالببوت تقوم عندها مدرسة ابتدائية وسجن كبير للاحداث ومحطة قطار ومساكن
للعمال . سألت مريم رجلاً ضخماً البناء شفاف المزاج عن امكانية مواجهة
محمد راغب . اجاب الرجل اجابة الواثق المتمتع بالسلطة - « بعد ربع
ساعة نخرج المرضى المطلوبين جميعاً - وسجل اسم محمد راغب في ورقة
صغيرة ناولها الى زميل له فهز هذا رأسه .

قلت لمريم - « انني ساقوم بجولة قصيرة استطلع ارجاء المستشفى» .
اجابت - لا بأس سانتظرك ريثما تعود - وأشارت الى مصطبة
واتجهت اليها .

كانت المستشفى مترامية الاطراف يتعذر على المرء ان يجد وصفا
لشكلها ، فهي مجموعة متراصة من الابنية المستطيلة ذات طابق واحد غنية
بالنوافذ بعضها كبير واطيء والبعض الاخر صغير مرتفع اشبه بالكوى في
القلاع . كانت عنابر الرجال تقع في مقدمة المستشفى بينما عنابر النساء في

المؤخرة . واذ كان الوقت ظهراً فقد قامت حركة ناشطة مسلية بين المرضى قبل ان يحمل اليهم الطعام . كان قد خرج من كل عنبر جماعة صغيرة تحمل سطلوا واوعية متجهة الى المطبخ . كان المطبخ عبارة عن بناء مربع ذي سقيفة واطئة تكدست تحتها اكياس الرز والمخضرات ، مزوداً بمفرغات هواء تدفع الدخان والابخرة الى الخارج . ومعظم العاملين في الطبخ هم من المرضى انفسهم اولئك الذين لا يخشى شرهم وانفعالاتهم . وكان بقية المرضى من الرجال والنساء يقعون عند الشبابيك وجلهم بايدي اختلال العقل زرى الهيئة غريب النظرات متهوس ثرثار لا يفتأ يستجدي السكائر والنقود بالحاح من المارة والمراجعين ، بينا ادارة المستشفى قد لصقت لوحات تمنع منح العطايا والهبات الى المرضى قلت لنفسي آخر الامر - في مثل هذا المكان انتهى المجامي محمد راغب .

عندما عدت الى مريم كان محمد راغب قد اخرج توا من العنبار ورأى الى مريم وجلس فوق الحشائش الخضراء الكثيفة المحيطة بواجهة المستشفى . نظرته عن بعد عدة امتار خلسة . كان يرتدي منامة نظيفة من البازة ذات جيوب واسعة هي اردية المستشفى تخصص لاولئك الذين يحظون بعناية ملحوظة بالنسبة لمكانتهم ، وقد صف شعر رأسه باستعجال وبمشط خشن الاسنان ، يدخن سيكارة وفي جيبه الصدري علبة وثقاب . اومأت الى مريم ان ادنو فقد كان محمد راغب يتحدث لسبب لا افهمه ، سمعته يقول « .

- اذن القيت بي في هذه الزنازة الرهيبة جراء ما صنعت لك من معروف وما انفقت عليك من مال . اني ان اتخلي عن اختراعي وان قامت دونه حرب طاحنة تمطر فيه السماء حمما وصواريخ ، ان يستطيع احد

اعتراض سبيلي .

تمتت مريم في اشفاق وحسرة - ما شأني انا يا سيدي باختراعك
انبي محزونة من اجلك ، ولا يمكن ان اتجاهل اياك البيض علينا .
- اذن اطلي من المدير ان يخرجني من هذا المكان المقيت . ان المدة
المقررة لكل انسان في هذا المكان لا تقل عن عشرة اشهر ، ويتباهي الاطباء
بكل صلافة انها مدة قصيرة وتدل على التقدم . تصوري عشرة اشهر مع
مدمني المخدرات والخمور وجمهور البغايا والمعتوهين والمشردين ، أي موقف
هذا بالنسبة الى مخترع يعكف على انجاز اختراع مدهش مذهل يجعل اعظم
علامة على ظهر الارض ينحني اجلالاً لي .

قالت مريم في تحسر - انني لا أعرف اي شيء عن سبب احتجازك
في المستشفى وليست لي اية معرفة بانسان .

- اذن لم انت هنا ؟

- جئت اعودك ، اسأل عن حالك واتمنى لك الشفاء والخير والنجاح
- ولكنني مشافي ومعافي ، انني لا اشكو اي مرض ، وراغب في مواصلة
تجاربي وخدمة العلم وانجاز اختراعي في وقت قريب ارجوك مريم انني
هنا في سجن .

- ما ذنبي انا لست افهم .

تأمل محمد راغب وقال في ثقة - اذن فعل كل ذلك العلماء
والمخترعون . اولئك الحاسدون الشامتون خشية ان أفصح قصورهم وجهاهم
وتخلفهم . ربما انت بريئة يا مريم وظنوني بك في غير مكانها .

تضرعت مريم في « اسي - ليكن الله عونك وهذا الاختراع
الذي ما تزال تردده وكأنه كنز من كنوز الملك سليمان ، أي شيء هو هذا »

أي جدوى من ورائه .

- ملايين الدنانير يا مريم . استطيع ان اكسوك بقميص من الذهب
واصطحبك معي في اقطار العالم .
- ولما لا تصطحب زوجتك . انها اولى مني .

همس محمد راغب في نبرة قانطة - « طلقتهآ ... ذهبت الى اهلها مع
الاولاد ولن تعد مرة اخرى ولا اظن اني سوف احتاجها بأي حال.....
لقد رتبت اموري ان تكوني انت معي كما كنت مع جمال» تقدمت خطوات
ووقفت تجاه محمد راغب وجها لوجه . القى على اول الامر نظرة عابرة ولم
يعرني اهتماماً ثم بدت فجأة في عينيه ايماضة فعل من يتذكر امرأ ما غاب
عن باله . فتح فاه وحملق في وجهي مقطباً حاجبيه تقطبية مروعة ، قال في
انشاده - « انت ايضاً هنا ، ما الذي تفعله . جئت تراني . ذلك شيء
عظيم . اذكر انك اعترمت دراسة القانون لتخدو فقيها من الفقهاء اومشرعاً
كبيراً . ما الذي انتهت اليه جهودك ؟

اجبت في مرح وانبساط - « انتهت الى خير وغدوت محامياً
ورجل قانون ؟

- « اذن ما الذي تفعله هنا ... تنفرج على المرضى »

- « نعم انفرج على المرضى »

- اظنك تكذب جئت في نزهة مع صديقة مع مريم اليس
كذلك يا مريم انتما اتيتما في سيارة واحدة وقد تكون خاصة لقطع
السنة المتقولين ... وانه ميعاد وصحبة مشبهة وشمس لامعة ضاحكة
لتنفرجا على سجين في قفص وتفرحا نفسيكما باسداء معروف كاذب علي .
قلت مقاطعاً - أنا جئنا من اجل رؤيتك لانك صديقي وصديق

المرحوم الذى هو زوج مريم ، وليس ثمة هدف اخر .
- « اعرف اعرف من اجلي ومن اجل صداقتكما الطاهرة البريئة
اعرف جيدا انكما سعيكما سعيًا محمومًا من اجل ان تدفعاني في الزنانة
وتقفلان من دوني الابواب . تلك خطة بارعة من اجل ان تتخلصا مني ومن
زياراتي والحاحي ومودتي . ولكنكما لم تفكرا قط اني على ابواب انجاز
اختراع عظيم انفقت ايام وايام من اجل اتمامه اواه اني اخشى
اليأس ان يتسرب الى نفسي فيضيع كل شيء من يدي ... ولكنني اصمد
للمناكدات بعزيمة وصبر وايمان » ثم شرعت عيناه تدمعان عجزاً وقنوطاً .
قلت في وليجة نفسي - اية قوة فوق الارض تستطيع ان تقنع هذا
الرجل انه واهم وموسوس وليس ثمة شيء اسمه اختراع وانه غير
مضطهد بالمرّة .

سألته في مودة متناهية - « يا اخي محمد راغب اني مستعد ان اودى
اليك اية خدمة تشاء . ان اردت كلمت المدير من اجل اطلاق سراحك »
ثم تقدمت مريم ووضعت كفها على ظهره كما تفعل الام مع ابنها المتقلب
الاهواء وقالت برقة يا عزيزي حسن ظنونك ، فكر ملياً ، نحن اصدقاء
لا اعداء . نريد لك الخير والعافية ولازلنا جميعاً عند خدمتك » .

قال في ذهول « على اية حال تستطيعان ان تدعيا شتى المزاعم في
سبيل نواياكما ، ولكنني في الحقيقة لست في حاجة الى زيارتكما ولا اريد ان
تتخذنا من نكبتى موضوعاً لغرامكما ولا من هذه المستشفى مكاناً لمواعيدكما .
انما يهمني بالدرجة الاولى هو الاختراع » واستدار في قوة وهو يردد في
انفعال - الاختراع ذلك كل شيء في حياتي - ومضى الى عنباره وصراخه
ما يزال يدوى وقد التفتت اليه الانظار .

في الطريق حدثتني مريم حديثاً عجيباً عن محمد راغب وعن تصرفاته. فقد اخذ يطرق بابها في اية ساعة يشاء من ساعات الليل او النهار ويعرض عليها معونات مالية لانتاحتاجها ويمسك جالساً يثرثر في موضوع اختراعه ويدعوها الى بيته كي تطلع عليه . وانه الح عليها ان يصطحبها في سفرة طويلة بعد ان ينجز اختراعه ويربح الملايين ويكون موضع حفاوة علماء العالم . وعندما نصحته بالتروى والتعقل جن جنونه وصار يهذى ويزبد حتى لفت اليه انظار الجيران فوقع في ازمة نفسية معقدة عملت هي من جانبها على استفحالها وتقويتها ، فقد تنكرت لصحبته وشاكسته وداورت معه حتى اختلط عقله وصار يعارك زوجته ويزجر اولاده ويضربهم ويهمل عمله وملبسه وطعامه . فلم يكن بد من ادخاله المستشفى وحمل زوجته واولاده الى بيت اهلها . هكذا عدت من زيارة محمد راغب في المستشفى وانا أتقطراسى واسقاً من اجله . ترى من الذي جنني على محمد راغب ودفعه الى هذا المصير المحزن كان جمالاً من غير شك يغذي تصورات صديقه وفي زعمه انها وسيلة لتمتين الصداقة مع رجل مرموق يعمل محامياً . وعند وفاته وجد محمد راغب نفسه فجأة من غير صديق يفهمه او يتظاهر بفهمه ، فحاول باديه الامر ان يسد فراغه الكبير بفرض صداقته على فامتنت بعد فترة قصيرة فالتجأ الى مريم كان يجد فيها ايام حياة جمال زوجة مثالية بالنسبة لرجل يهب نفسه للعلم ولعلها تقصمت دورها اكثر مما هي في الحقيقة . في حين كانت زوجة محمد راغب امرأة صريحة عادية التفكير تعيش من اجل بيتها واولادها . واذ كان لمريم ايام حياة جمال مجالاً لتمثيل دورها واصطناع المودة والعطف تجاه محمد راغب فان هذا المجال قد ضاع تماماً واضحى موقفها محفوفاً بالخطر ، فلم يكن بد من ان تعود الى طبيعتها وتلتزم حدودها وتمنع هذا

او ذاك من الرجال من زيارتها وان كان صديقاً حميماً قريباً الى قلبها .
ولكن الذي يؤسف له هو عدم تفهم محمد راغب لاي من هذه
الحقائق حتى تفهم حقيقة نفسه ولذا كان انهيار اعصابه امرأ متوقفاً وحتى
وهو في المستشفى يتصور ان مريم قد خانتة ودفعت به الى الهلاك وكذلك
انا قد خنته ودفعت به الى الهلاك في حين ان بذرة جنونه تعهدتها
جمال بالانماء والسقي . ولا شك ان ما فعله كان بحسن نية وبطيبة قلب
للابقاء على صداقة غير متكافئة .

للمؤلف

- | | |
|----------------|----------------------|
| اقاصيص ١٩٥٢ | ١ - حصاد الدموع |
| اقاصيص ١٩٥٣ | ٢ - المأمور العجوز |
| اقاصيص ١٩٥٤ | ٣ - قافلة الاحياء |
| اقاصيص ١٩٥٥ | ٤ - كاتب واردة |
| مسرحيات ١٩٥٥ | ٥ - الهارب من المقهى |
| اقاصيص ١٩٥٦ | ٦ - خيبة امل |
| اقاصيص ١٩٥٧ | ٧ - سعيد افندي |
| قصة طويلة ١٩٥٨ | ٨ - الحالة عطية |
| اقاصيص ١٩٥٩ | ٩ - في خضم المصائب |
| مسرحية ١٩٥٩ | ١٠ - الست حسبية |
| اقاصيص ١٩٦٠ | ١١ - هارب من الظلم |
| اقاصيص ١٩٦١ | ١٢ - ليلة مزعجة |
| اقاصيص ١٩٦١ | ١٣ - خبز الحكومة |
| قصة طويلة ١٩٦٢ | ١٤ - زوجة المرحوم |

قريباً

- | | |
|-----------------------|------------------|
| مسرحية ذات اربعة فصول | ٥ اديب من بغداد |
| مسرحية ذات فصولين | ٥ محكوم بالاعدام |